﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى
الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ
يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ
اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

هذا الادعاء فيه مساس بجلال الله تعالى، فالإنسان يتخذ ولداً لعدة أسباب؛ إمَّا لأنه يريد أن يبقى ذكْره فى الدنيا بعد أن يرحل، والله سبحانه دائم الوجود؛ وإمَّا لكى يعينه ابنَه عندما يكبر ويضعف، والله سبحانه وتعالى دائم القوة؛ وإما ليرث ماله وما يملك، والله تبارك وتعالى يرث الأرض ومن عليها. وإما ليكون عزوةً له، والله جل جلاله عزيز دائماً. وهكذا تنتفى كل الأسباب التى يمكن أن تؤدى إلى هذا الادعاء. ولا يعقل أن يرسل الله سبحانه رسولاً ليبين للناس منهج الحق فإذا به يقول للناس: إنَّه ابن الله. إذن فهم لم يؤمنوا الإيمان الكامل بالله.

ويسوق الحق تبارك وتعالى قول كل من اليهود والنصارى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُود عُزَيْرٌ ابنُ الله وقالت النَّصارَى المسيحُ ابنُ الله ﴾.

وهكذا نجد أنهم لم ينزهوا الله وأخلُّوا بالإيمان الحق. ولابد أن نعلم أن من قالوا: إن عُزَيْراً ابن الله ليسوا هم كل اليهود، بل جماعة منهم فقط هى التى جعلت عُزَيْراً ابناً لله لما رأى أفرادها على يديه نعمة أفاءها الله تعالى عليه، فقالوا: هذه نعمة عظيمة جداً لا يمكن أن يعطيها ربنا لشخص عادى، بل أعطاها لابنه. ذلك أن اليهود بعد سيدنا موسى عليه السلام قتلوا الأنبياء، وعاقبهم الله بأن رفع التوراة من صدور الحافظين لها، ولكن طفلاً لم يعجبه

مشهد قتل الأنبياء فخرج شارداً في الصحراء مهاجراً وهارباً، فقابله شخص في الطريق فسأله: لماذا أنت شارد؟ فقال: خرجْت أطلب العلم. وكان هذا الشخص هو جبريل عليه السلام، فعلَّمه أن لله توراة، فحفظها فصار واحداً من أربعة، هم فقط من حفظوا التوراة: موسى، وعيسى، وعزير، واليسع، ولأن الكتب قديماً لم تكن تكتب على ورق رقيق مثل زماننا، بل كانت تكتب على الأحجار وسعف النخيل، لذلك كان وزن التوراة يقدر بسبعين حمْل بعير ، وحين رجع عزير حافظاً للتوراة، اندهش قومه وقالوا: لابد أنه ابن الله ؛ لأن الله أعطاه التوراة وآثره على القوم جميعاً [١]. ونشأت جماعة من اليهود تؤمن بذلك، وكان منهم سلاَّم بن مشكم، وشاس بن قيس، ومالك ابن الصيف، ونعمان بن أوفى. وحينما أنزل الله قوله: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ ﴾ لم ينكر اليهود المعاصرون لهذا النزول تلك المسألة ولَم يكذبوها، فكأن هناك من اليهود الذين كانوا بالمدينة من كان يؤمن بذلك، وإلا لاعترضوا على هذا القول، وهذا دليل على أن ما جاء بالآية يصدق على بعضهم أو هم عالمون بأن قوماً منهم قد قالوا ذلك. وكذلك قالت النصارى عن عيسى عليه السلام، فجاء قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ﴾.

ويتابع الحق: ﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ ﴾ فيوضح لنا سبحانه أن البنوة لله جاءت فيها مشبهة، كان يجب أن يلتفتوا إليها وينزهوا الله عن ذلك؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يصف عباده بأنهم عباد الله ، وأن الخلق كلهم خلق الله تعالى.

فالمولى سبحانه وتعالى وهو الخالق والقادر على كل شيء خلق كل الخلق

(١) انظر قصة العُزير هذه في تفسير القرطبي (٤/ ٣٠٤٣) وابن كثير (٢/ ٣٤٨). والعزير هو نبي من أنبياء بني إسرائيل وهو الذي ضربه الله مثلاً لإحياء الموتى في قوله تعالى: ﴿أو كالذي مرَّ على قَرْيَةٍ وهي خَاوِيةٌ عَلَى عُرُوشِها قال أنى يُحيي هذه الله بعْدَ موتها فَأماتَهُ الله مائة عام ثُمَّ بعثهُ. . . ﴾ (البقرة: ٢٥٩).
قال ابن كثير في قصص الأنبياء (ص ٣٨٠): «روى ابن عساكر عن ابن عباس أنه سأل عبد الله بن سلام عن قول الله تعالى: ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله﴾ لم قالوا ذلك؟ فذكر له ابن سلام ماكان من كَتْبه لبني إسرائيل التوراة من حفظه، وقول بني إسرائيل: لم يستطع موسى أن يأتينا بالتوراة إلا في كتاب، وإن عزيراً قد جاءنا بها من غير كتاب. فرماه طوائف منهم وقالوا: عزير ابن الله».

من عدم ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً. ولكن الشبهة عند بعض من أتباع المسيح جاءت من أنه أوجدَ من دون أب، ونقول لهم: لو أن هذا الأمر جاء لكم من هذا الطريق، فكانَ من الأوْلى أن تجيء ذات الشبهة في خلق آدم؛ لأن قصارى ما في المسيح أنه جاء من غير أب، ولكن آدم جاء من غير أب ومن غير أم، فأيهما كان أوْلى أن يكون ابن إله؟

ولذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ إنَّ مثَل عيسى عند الله كمثَل آدَمَ ﴾. والحق سبحانه وتعالى يخلق الشيء - أي شيء - بأسباب، وكل الأسباب مخلوقة له، والولد منا - في جمهرة الناس - ينشأ من اجتماع الأب والأم، والشيء المردود بين شيئين له صور منطقية أربعة: إما أن يوجد بوجود شيئين ذكر وأنثى، وإما أن يوجد بانعدام الشيئين مثل آدم، وإما أن يوجد بوجود واحد من الشيئين وهو الذكر مثل حواء، فقد خلقها الله من آدم مصداقاً لقوله: ﴿وَخلقَ منها زَوجها ﴾، وإما بوجود واحد من الشيئين وهي الأنثى وخلق عيسى عليه السلام منها بدون وجود الذكر. وليعلمنا الله سبحانه وتعالى جميعاً أن الأسباب لا دخل لها في التكوين، وأن المسبِّب هو القادر على أن يوجد من غير أب وأم كما أوجد آدم، وأن يوجد من أب وأم كما أوجد جمهرة الناس، وأن يوجد من أم دون أب كما أوجد عيسى، وأن يوجد من دون أم كما أوجد حواء.

إذن: فالقسمة دائرة بقدرة الله وإرادته، ولا دخل لأحد إلا إرادة الحق سبحانه وتعالى، فالأسباب ليست هي الفاعلة في ذاتها، بل إرادة الخالق سبحانه هي الفاعلة، ولذلك يقول المولى سبحانه وتعالى:

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾ [الشورى]

أي: قد يوجد الذكر والأنثى ولا يعطي لهما الحق عز وجل أولاداً، وهذه

طلاقة قدرة من الله تعالى، فإياك أن تقول إنها بأسباب، بل سبحانه وتعالى يَهَبُ لمن يشاء إناثاً، ويهب لمن يشاء ذكوراً، ويجمع لمن يشاء بين الذكور والإناث، ويجعل من يشاء عقيماً، وكان استقبال الناس للمواليد يختلف؛ فالعرب كانوا يحبون إنجاب الذكر؛ لأنه قوى ويحقق العزوة ويركب الخيل، ويحارب الأعداء. ولم يكونوا يحبون إنجاب الفتاة لأنها قد تأتى منها الفضائح، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [النحل]

وجاء الإسلام ليوضح: أنه مادام لا دخل لك فى الإنجاب والإنسال، فَدع الأمر لمن يهب الأبناء. وقد سمى الحق تبارك وتعالى الأبناء « هبة » ليذكرك أن الإنجاب شىء أعطاه سبحانه لك بلا مقابل منك، فالذكور هبة، والإناث أيضا هبة. فلا تفضل تلك الهبة عن هذه الهبة. ودائماً أقول للذى ينجب بنات، ويذهب هو وزوجته إلى الأطباء: لو استقبلتم هبة الله فى الإناث كما تستقبلونها فى الذكور، فإن الحق سبحانه وتعالى يجزيكم جزاء لا يخطر لكم على البال، فيحسن الله كل ابنة لكم فى عين رجل صالح ويتزوجها، فإن كُن عشر بنات فهُنَّ يأتين بعشرة رجال أزواج يعاملون الأب والأم لكل زوجة معاملة الأب والأم، وهكذا يرزق الله من يرضى بقسمة الله فى الإنجاب، ويصبح أزواج البنات أطوع من الأبناء الذكور، فالذى يرضى بالهبة فى الإناث يوضح له الله: رضيتَ بهبتى فيك ولم تكن على سنة العرب من كراهة الإناث؛ لذلك أهبك من أزواج البنات أبناء لم تتعب فى تربيتهم ويكونون أكثر حناناً وولاءً من أى أبناء تنجبهم أنت. ولذلك إذا ما وجدت إنساناً قد وُفِّقَ فى زيجات بناته، من رجال يصونون أعراضهم ويحسنون معاملة أهل الزوجة، فاعلم أن الأب قد استقبل ميلاد الأنثى بالرضا؛ لأنها هبة الله.

ويقول المولى سبحانه وتعالى:

﴿ ويجعل من يشاء عقيماً (٥٠) ﴾ [الشورى]

إذن: فالعقم أيضاً هبة إلهية؛ لأن الإنسان إذا ما استقبل العقم برضا الله ؛ لَوَجَد في كل رجل يراه ابناً له؛ لأنه استقبل الهبة في المنع برضا، مثله مثل من استقبل الإناث كاستقبال الذكور. إذن: مادامت المسألة هبة من الله فيجب أن تستقبل عطاء الله ومنعه بالرضا.

وعيسى عليه السلام جاء بنسبة طلاقة القدرة من الخالق سبحانه وتعالى؛ لأن القسمة العقدية والعقلية لا تتم إلا به، ولن تتكرر؛ لأن آدم وُجِدَ أولاً، ومن وجدوا بعد آدم جاء كل منهم من أبوين، وكذلك حواء وُجِدت من قبلهم، فهذه ثلاث صور قد وجدت في الكون وبقيت صورة ناقصة، هي أن يوجد إنسان من أم دون أب، فأتمها الله عز وجل بعيسى عليه السلام:

﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى المسيح ابنُ الله ذَلِكَ قَوْلهم بأفواههِمْ ﴾

وقول الحق ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى القول بأن المسيح ابن الله أو عزير ابن الله، ويضيف الحق عز وجل توضيحاً ﴿ قَوْلهم بأفواههمْ ﴾. ونسأل: وهل يوجد قول بغير أفواه ؟ إن كل قول إنما يكون بالأفواه؛ حتى قول المؤمنين بأن الله واحد وأن محمداً رسول الله هو قول بالأفواه. ونقول: هناك قول بالفم فقط دون أن يكون له معنى من المعاني، وهناك قول بالفم أيضاً وله معنى، إلا أنه غير حقيقي، وكاذب.

ولنعرف أولاً: ما هو القول؟ إنه كلام يعبر به كل قوم عن أغراضهم؛ كأن تقول للطفل: اجلس، ولابد أن يكون الطفل فاهماً لمعنى الجلوس، وإن قلتها بالعربية لطفل إنجليزي فلن يفهم معناها.

إذن: فاللغة ألفاظ يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، والغرض هو معنى متفق عليه بين المتكلم والسامع، ولابد أن يعرف الاثنان ما يشير إليه اللفظ من

موضوعات. فإن لم يعرف السامع اللفظ الذى يتكلم به المتكلم فهو لا يفهم شيئاً.

وهكذا نعلم أن الفهم بين المتكلم والمخاطب يشترط فيه أن يكونا عليمين باللفظ، فإذا تكلم متكلم بشيء لا علم للسامع به؛ فهو لا يفهم. وكانوا يضربون لنا المثل قديماً بعلقمة النحوى وكان مشهوراً فى النحو والألفاظ واللغة، ويتقعر فى استخدام الكلمات، ولا يتكلم إلا باللغة الفصيحة الشاذة التى لا يعرفها الناس، وكان عند علقمة خادم، فمرض علقمة النحوى مرة وذهب إلى طبيب اسمه « أعجز » ليشكو له علة عنده، وقال علقمة للطبيب: قد أكلت من لحوم هذه الجوازىء فقصأت منها قصأة أصابنى منها وجع من الوابيــة إلى دأية العنق، ولم يزل يمنى حــتى خــالط الخلب وأملت منه السراسيب. ولم يكن الطبيب متخصصاً فى اللغة ولا معاجم عنده، فوقف مستغرباً من كلمات علقمة وقال له: أعدْ علىَّ ما قلته فإنى لم أفهم، فأعاد علقمةعليه ما قاله بغضب ولوم لأنه لم يفهم لغته، وعرف الطبيب تقعر علقمة فقال له: هات القلم والورقة لأكتب لك الدواء، وكتب له: خذ حرقة وسلقة ورهرقة واغسله بماروس واشربه بماء ماء. فقال علقمة: أعدْ علىَّ فوالله ما فهمت شيئاً، فقال الطبيب: لعن الله أقلَّنا إفهاماً لصاحبه. وعرف علقمة أنه متقعر فى اللغة ويأتى بألفاظ ليست من الألفاظ الدائرة على ألسن الناس. وقال أساتذتنا لنا: ولم يؤدبه عن هذا إلا غلامه أى خادمه، فقد استيقظ علقمة ذات ليلة وقال: يا غلام أصعقت العتاريف، ولأن الغلام لم يفهم فقد رد قائلاً: زقفيلا، وقال علقمة للغلام: وما زقفيل؟ قال: وأنت ما أصعقت العتاريف؟ فقال له: يا بنى لقد أردت أصاحت الديكة؟ فقال: وأنا أردت لم تَصِحْ.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ إذن: القول هو اللفظ الملفوظ من الفم، وهذا القول إمَا أن يكونَ له معَنى، وإما ليس له معنى. مثل كلمة « زقفيل » التى قالها خادم علقمة، هذه الكلمة ليس لها

وجود فى اللغة فهى قول باللسان ليس له معنى . وقد يكون القول له معنى ؛ إلا أنه كلام باللسان لا يؤيده واقع ، فهو كذب .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ يحتمل الأمرين . إما أنهم يقولون كلاماً لا يقصدونه ولا يعرفون معنى ما يقولون ، والمثال : أن نقول : « كتب » ، وهى كلمة مكونة من الكاف والتاء والباء ، ويمكن أن نستخدم ذات الحروف فنقول : « كبت » وهى نفس الحروف أيضاً ولها معنى . أو نقول : « تكب » وهو لفظ غير مستعمل ، وهو كلام بالفم ولا معنى له فى اللغة ، بل هو لفظ مهمل . فإذا قال إنسان كلاماً له معنى فهمناه مثل قول : « زيد كان بالأمس بالمكان الفلانى » وهنا زيد معلوم ، والمكان معلوم ، وأمس معلوم . لكن زيداً لم يذهب إلى ذلك المكان ، وبذلك يكون القول فى حقيقته كذباً لم يحدث . ويكون كلاماً بالفم ، ولا واقع له فى الحياة .

إذن : فالقول بالفم إما أن يكون لا معنى له أبداً ، فيستعمل كلفظ مهمل لا وجود له فى اللغة ، وإما أن يكون له معنى فى ذاته إلا أنه ليس له واقع يؤيده .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ .. ④ ﴾ [الأحزاب]

والله سبحانه يقول :

﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ .. ④ ﴾ [الأحزاب]

هذا إذن كلام لا وجود له فى الواقع ، فالزوجة لا تصير أمّاً لزوجها والولد المتبنى لا يكون ابناً للرجل أو المرأة ، لذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ﴾ [الأحزاب : ٥]

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) ﴾

[الكهف]

أي: أن هذا القول منهم كلام له معنى في اعتقادهم ، ولكن ليس له واقع، ولذلك قال المولى سبحانه وتعالى : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ أي: لا واقع لهذا القول يسنده فهو كذب .

﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ وهل هذا القول بالأفواه أهم ابتكروه أم ابتدعوه ؟ إن الحق سبحانه يوضح لنا : ﴿ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ﴾ أي : أنهم لم يأتوا بهذا التصور من عندهم ، بل من شيء له واقع ، فقد قال المشركون ما أورده الحق على ألسنتهم :

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا (١٩) ﴾ [الزخرف]

فقد توهم المشركون أن لله تعالى بنات والعياذ بالله – وسبحانه منزه عن ذلك ، في ذلك يخاطبهم المولى ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴾ – إذن : فهذا كلام قديم ؛ لذلك قال الحق عنهم: ﴿ يُضَاهِئُونَ ﴾ أي: يشابهون ويماثلون الذين من قبلهم حينما قالوا مثل ذلك ، كما أن البوذية في الصين واليابان قالت ببنوة الإله والحلول وقد حفظ بعضهم من هؤلاء ، ولم يطرأ جديد من ألسنتهم ، وهم كما وصفهم القرآن الكريم ﴿ يُضَاهِئُونَ ﴾ أي: يشابهون ويماثلون به قول الذين كفروا من قبل ، و« المضاهاة » هي المماثلة والمشابهة ، وقالوا: إن مادتها مأخوذة من امرأة « ضَهْيَاء » [1] وهي التي ضاهت وشابهت

(١) قال في لسان العرب: امرأة ضَهْيأ، وهي التي لايظهر لها ثدي، وقيل : هي التي لا تحيض، فكأنها رجل شبهاً.

الرجل ، فى عدم الحيض أو الحمل أو الولادة ، وهى بذلك تكون شبيهة بالرجل .

﴿ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الذينَ كَفروا من قَبْل ﴾ والتعقيب هنا إنما يصدر من الحق تبارك وتعالَى عليهم ، وَلم يتركه الحَق لنا ، وساعة تسمع : ﴿ اتخذَ اللهُ ولَدًا ﴾ فالفطرة الإنسانية تفرض أن يقول السامع لهذا الكلام: قاتلهم الله كيف يقولون هذا ؟ وشاء الحق هنا أن يتحملها عنا جميعاً ؛ لأننا إن قلنا نحن : « قاتلهم الله أو لعنهم الله » فلا أحد منا يضمن استجابة الدعاء عليهم ، فالأمر قد لا يتحقق ، ولكن حين يقولها الحق سبحانه وتعالى . فتكون أمراً مقضياً . لذلك يقول الحق : ﴿ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ ، وما معنى قاتلهم الله ؟ أنت إذا رأيت فعلاً قبيحاً من فرد ، تقول: قاتله الله . لأن حياته تزيد المنكرات ، ومثال ذلك من يسب أباه ، يقول من يسمعه « قاتله الله » بينما يقول الإنسان منا لإنسان يفعل الخير: « فليعش هذا الرجل الطيب » ؛ لأنك ترى أن حياته فيها خير للناس .

وقول الحق : ﴿ قَاتَلَهُمُ اللهُ ﴾ أى لعنهم وطردهم ، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ ، وكلمة ﴿ أَنَّى ﴾ ترد بمعنيين ، فمرة تعنى « من أين ؟» ، ومرة أخرى تعنى « كيف ؟» ، والمثال على معناها الأول قول الحق سبحانه وتعالى على لسان سيدنا زكريا لما دخل على مريم البتول [1] :

﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ [آل عمران: ٣٧]

قال ذلك لأنه رأى عندها أشياء من الخيرات لم يأت بها إليها ، مع أنه هو الذى يكفلها ،والمفترض فيه أن يأتى لها بمقومات حياتها ، وعندما دخل عليها ووجد شيئاً هو لم يأت به ، سألها: ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ أى : من أين لك هذا؟ فأجابت مريم المصطفاة بما جاء فى القرآن الكريم :

(١) البتول من النساء : المنقطعة عن الرجال لا أرب لها فيهم ، وبها سميت مريم أم المسيح . ويقال : البتول هى المنقطعة إلى الله عز وجل عن الدنيا .

﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

[آل عمران: ٣٧]

وجاء الحق بهذه الكلمة لتخدم أموراً إيمانية كثيرة جداً ، وجاء بها على لسان مريم المصطفاة ؛ لأن المسألة ليست مجرد طعام يأتيها من مصدر لا يعلمه البشر حتى من هى فى كفالته . بل هى تقديم لما سوف يحدث . فلا تظن أن الأمور تسير سير المسألة الحسابية بأسباب ومسببات ، وعلل ومعللات، ومقدمات ونتائج ، بل هى بإرادة الله تعالى؛ لأنها لو كانت من عند الإنسان لفعلها بحساب، ولكن الحق سبحانه وتعالى يعطى بلا حساب؛ لأنه خالق الأسباب ، وهو قادر على أن يخلق المسبَّب على الفور :

﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧]

وحين أنطق الحق سبحانه وتعالى مريم بهذا إنما كان ليوضح لها ولزكريا فى آن واحد: إنك يا زكريا تأتى لها بالرزق فى حدود قدراتك وحساباتك البشرية، ولكن الله يأتيها بالرزق بغير حساب ، وهو ما لا تستطيع أن تأتى به قدرات البشر ، فقد يكون الرزق الذى رآه سيدنا زكريا عند سيدتنا مريم لوناً من الأطعمة لا يأتى إلا فى الصيف ، بينما كان الوقت شتاء ، أو العكس ، وقد يصح أن هذا الرزق ليس فى بلادهم مثله ،ولذلك قال : ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ وقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ هو قضية تربوية اجتماعية بمعنى أن الكفيل على قوم حينما يرى عندهم أشياء لم يأتِ بها هو، وجب عليه أن يسأل عن مصدرها، فحينما ترى فى يد ابنك قلم حِبر غالى الثمن وأنت لم تحضره له، لا بد أن تسأله: من أين جئت به ؟ وذلك لتعرف التأثيرات الخارجية عليه ، هل سرقه ؟ أم أن أحداً أراد استدراجه إلى غرض سيِّئ فأغراه بهذا القلم ؟

لا بد إذن أن تسأل ابنك: من أين لك هذا ؟ وكذلك إن رأيت ابنتك ترتدى ثوباً لم تأتِ لها به ولا أتت به أمها بعلمك ، لا بد أن تسأل ابنتك: من أين

لك هذا ؟ وهذه القضية إن سيطرت على كل بيت من بيوتنا فلن يحدث فى البيوت ما يشينها ، لكننا للأسف الشديد نرى فى بعض البيوت طفلاً يدخل ومعه قطعة من الشيكولاتة ، ولا تسأله الأم: من أين لك هذا ؟ بل تربت عليه وتأخذ منه قطعة من « الشيكولاتة » لتأكل معه . لكن الأم التى تجيد التربية تماماً تسأل الابن : من أين أتيت بها ؟ حتى تعرف هل ثمنها مناسب لمصروف يده أم لا ، فإن لم تجد أنه قد جاء بهذه «الشيكولاتة» من مصدر معلوم لها وحلال فهى تحذره وتضرب على يده .

ولا بد لنا أن نعلم أن قانون: « من أين لك هذا ؟» يحكم العالم كله ؛ لأنه يتحكم فى التربية الاجتماعية كلها . وقد سبق الإسلام العالم بأربعة عشر قرناً حين أنزل الحق تبارك وتعالى قوله: ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ ، وأجابت سيدتنا مريم الإيجاب الإيمانى ، وأوضحت لسيدنا زكريا عليه السلام: أنت تتكلم بحسابك ولكنى أتكلم بحساب الله تعالى ؛ لأن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، أنطقها الحق ذلك لأن هذا القول سوف يخدم قضايا عقدية متعددة فى الكون :

القضية الأولى : أنها ساعة أن قالت :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧]

نبهت زكريا إلى قضية عقدية ، وهى أن الله سبحانه وتعالى غير محكوم بالأسباب ، وسبحانه يعطى بلا حساب ، ونظر زكريا إلى نفسه متسائلاً: ما دام الله عز وجل يعطى بغير حساب ، وأنا قد بلغت من الكبر عتياً ، وامرأتى عاقر ، فلماذا لا أطلب منه أن يعطينى الولد ؟

إذن: فقد نبهت مريم سيدنا زكريا عليه السلام ولفتت نظره إلى قضية عقدية ، وهى أن الله يعطى بلا أسباب ، وبلا حساب ، فدعا الله أن يرزقه غلاماً فلما بشره الحق بالغلام تساءل: كيف يرزق بالغلام وامرأته عاقر ، وهو قد بلغ من الكبر عتياً ؟ وجاءت الإجابة من الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ [مريم: ٩]

وهكذا انتفع زكريا بعطاء الله بالابن، ولم يكتف الحق سبحانه وتعالى بذلك، بل تكفل عن زكريا بتسميته، ولله ملحظ في تسميته، ونحن نعلم أن الناس تسمي الوليد الصغير بأسماء تتيمن بها [1]، مثل أن يسمي رجل ابنه «سعداً» رجاء أن يكون سعيداً، وقد يسمونه «فارساً»، رجاء أن يكون فارساً، ويسمونه «فضلاً» رجاء أن يكون كريماً، ويسمون الفتاة «قمراً» لعلها تكون جميلة. إذن: فالتسمية باسم يحمل معنىً شريفاً على أمل أن يكون الوليد هكذا، وهناك شاعر كان أولاده يموتون بعد الولادة، فجاءه ابن وسمَّاه يحيى، فمات هذا الابن أيضاً فقال الشاعر متحسِّراً:

سَمَّيْتُه يَحْيى لِيَحْيا فَلَمْ ... يكُنْ لرد قضاء الله فيه سَبِيلُ

إذن: فالتسمية بالاسم الشريف، أو بالاسم الذي يدل على الشيء المؤمَّل هو رجاء أن يكون الوليد هكذا، لكن المسمي لا يملك أن يكون سعيداً، ولا أن يكون فارساً، ولا أن يعيش؛ لأن الذي يملك كل ذلك هو الله سبحانه وتعالى، فإذا كان الله هو الذي سمى يحيى، فلابد أن يكون الأمر مختلفاً؛ لأن الذي يملك هو الذي سمَّى، فهل سيعيش يحيى بن زكريا كالحياة التي نحياها وفيها الموت مُحتَّم على الجميع؟ نعم؛ لذلك شاء له الله أن يموت لتبقى حياته موصولة إلى أن تقوم الساعة. وهكذا رأت سيدتنا مريم آثار ذلك منذ أن قال لها زكريا عليه السلام ﴿أَنَّى لَكِ هَذَا﴾ وأجابت:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) ﴾ [آل عمران]

---

(١) عن علي بن أبي طالب قال: «لما ولد الحسن سميته حرباً، فجاء رسول الله ﷺ، فقال: أروني ابني ما سميتموه؟ قال: قلت حرباً، قال: بل هو حسن. فلما ولد الحسين سميته حرباً. فجاء رسول الله ﷺ فقال: أروني ابني ما سميتموه؟ قال: قلت: حرباً، قال: بل هو حسين» أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٩٨، ١١٨) والحاكم في مستدركه (٣/ ١٦٥، ١٨٠) وصححه وأقره الذهبي.

لقد رأت كل ذلك فى سيدنا زكريا وفى ميلاد يحيى، وجعل الله كل ذلك مقدمات لها؛ لأنها ستُمتحن فى عِرْضها فهى التى ستنجب ولدا من غير أب، وعليها أن تتذكر دائماً قولها :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧]

ولذلك تجد القرآن الكريم فى قصصه العجيب يقول على لسان مريم :

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ [مريم: ٢٠]

وقد بشَّرها الحق تبارك وتعالى بذلك فى سورة آل عمران :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾

[آل عمران: ٤٥]

ومادام قد نسبه الله لها فلن يكون له أب، فتساءلت: كيف يكون لى غلام من غير أب. ويُذكّرها الحق عز وجل بهذا القول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧]

وقال لها :

﴿ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾ [مريم: ٢١]

مثلما قال لزكريا من قبل، إذن ﴿أَنَّىٰ﴾ هذه هى مفتاح الموضوع العقدى كله، فى زكريا ويحيى، وفى مريم وعيسى، وهذا هو معنى ﴿أَنَّىٰ﴾ وقلنا إن «أنَّى» تأتى بمعنى كيف؟ مثل قول الحق تبارك وتعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

وسيدنا إبراهيم لا يُكذب أن الله قادر على الإحياء، ولكنه يسأل عن الكيفية، وهنا يقول الحق: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أى : كيف يعدلون عن الحق؟ فالقضية منطقية ، وماكان يصح أن تغيب عنهم، فكيف يُصرَفون عن

هذه الحقيقة التي توجبها الفطرة الإيمانية؟ وكيف يضلون عن الحق وهو ظاهر ويعدلون إلى الباطل؟

ويقول سبحانه بعد ذلك عن أهل الكتاب :

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) ﴾

و«الحَبْر» هو لقب عند اليهود، وهو العالم. ويقال في اللغة «حبر» أو «حِبْرٌ» أي رجل يدقق الكلام ويزنه بأسلوب عالم. والرهبان عند النصارى والمقصود بهم المنقطعون للعبادة، فالحَبر عالم اليهود، والراهب عابد النصارى، أما عالم النصارى فيسمى «قسيس» ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا ﴾ [المائدة: ٨٢]

فإن قصدنا عالم الدين المسيحي قلنا : «قسيس» ، وإن قصدنا رجل التطبيق أي العابد قلنا: «الراهب» والراهب هو من يقول: إنه انقطع لعبادة الله فوق ما طلب الله منه من جنس ما طلب، ونعلم أنه لا رهبانية في الإسلام[1]، ولكن الإنسان يستطيع أن يتقرب إلى الله كما يحلو له من جنس ما طلب الله منه، فإن كان الحق عز وجل قد أمر بإقامة الصلاة خمس مرات

(١) روى الإمام أحمد عن عروة قال : دخلت امرأة عثمان بن مظعون أحسب اسمها خولة بنت حكيم على عائشة وهي باذة الهيئة (أي : رثة الهيئة تاركة زينتها) فسألتها : ما شأنك؟ فقالت : زوجي يقوم الليل ويصوم النهار (أي: أنه منصرف عنها إلى قيامه وصيامه وعبادته) فدخل النبي ﷺ فذكرت عائشة ذلك له فلقي رسول الله ﷺ عثمان فقال : «ياعثمان إن الرهبانية لم تكتب علينا، أفما لك فيَّ أسوة، فوالله إني لأخشاكم لله وأحفظكم لحدوده» أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ٢٢٦) وابن حبان (١٢٨٨ ـ موارد الظمآن).

في اليوم، فالمسلم الذى يرغب فى زيادة التقرب إلى الله يمكنه أن يصلى ضعف عدد مرات الصلاة، وإذا كان الحق سبحانه قد فرض أن تكون الزكاة بمقدار اثنين ونصف فى المائة، فالعبد الصالح قد يزيد ذلك بضعفه أو أضعافه. وهذه زيادة من جنس ما فرض الله تعالى وزيادة، وهذا يعنى فى الإسلام الدخول إلى مقام الإحسان [1]، واقرأ إن شئت قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) ﴾ [الذاريات]

أى: أنهم قد دخلوا إلى مقام الإحسان أى ارتقوا فوق مقام الإيمان. ويزيدنا الحق علماً بمقام الإحسان فيقول :

﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات]

وسبحانه لا يطلب منا فى فروض الدين ألا نهجع [2] إلا قليلا من الليل، بل نصلى العشاء وننام إلى الفجر. لكن إنْ قام الإنسان منَّا وتهجد فذلك زيادة عما فرض الله ولكنه من جنس ما فرض الله. وكذلك الاستغفار فمن تطوع به فهو خير له. وكذلك الصدقة على غير المحتاج، فهنا زيادة فى العطاء على ما فرضه الله من الزكاة التى حُدِّدَتْ من قبل فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) ﴾ [المعارج]

والرهبانية كانت رغبة من بعضهم فى الدخول إلى مقام الإحسان، ولكن الحق لم يفرضها عليهم؛ لأنه هو الذى خلق وعلم أزلاً قدرات من خلق،

(١) قال ابن رجب الحنبلى فى جامع العلوم والحكم (ص ٤٨): «الاحسان هو أن يعبد المؤمن ربه فى الدنيا على وجه الحضور والمراقبة، كأنه يراه بقلبه وينظر إليه فى حال عبادته، فكأن جزاء ذلك النظر إلى الله عياناً فى الآخرة.. وذلك يوجب الخشية والخوف والهيبة والتعظيم، ويوجب أيضاً النصح فى العبادة وبذل الجهد فى تحسينها وإتمامها وإكمالها».
(٢) الهجوع : النوم ليلا.

لذلك قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ [الحديد: ٢٧]

هم إذن قد ابتدعوها ابتغاء رضوان الله وزيادة فى العبادة ، وليس فى ذلك ملامة عليهم ، ولكنها ضد الطبيعة البشرية ؛ لذلك لم يراعوا الرهبانية حق رعايتها ، ويقول المولى سبحانه وتعالى هنا فى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا ﴾ فهل معنى ذلك أنهم يقولون للحبر أو الراهب « رب » ؟ لا ، ولكن كانت معاملتهم لهم كمن يعامل ربه ؛ لأن الله هو الذى يُحل ويحرم بـ « افعل » و « لا تفعل » ، فإذا جاء هؤلاء الأحبار وأحلُّوا شيئاً حرمه الله أو حرَّموا شيئاً أحلَّه الله، فهم إنما قد أخذوا صفة الألوهية فوصفوهم بها ؛ لأن التحليل والتحريم هى سلطة الله ، فلذلك عندما دخل عدى بن حاتم على سيدنا رسول الله ﷺ ووجد الرسول ﷺ فى عنق الرجل صليباً من الذهب أو من الفضة قال سيدنا رسول الله ﷺ : « اخلع هذا الوثن » ، ومن أدب الرجل مع الرسول خلع الصليب . وقال ﷺ: « إنكم لتتخذون الأحبار والرهبان أرباباً » . فقال الرجل : نحن لا نعبدهم . . قال له رسول الله ﷺ : أو لا تطيعونهم فيما حرموا وأحلوا ؟ قال: نعم . قال : تلك هى العبادة[1] .

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ ولسائل أن يسأل : وما معنى عطف المسيح على الأرباب ، وعلى الأحبار والرهبان ؟ والإجابة : إن الذى يحلل ويحرم إن لم يكن رسولاً ، فهو إنسان يطلب

---

(١) عن عدى بن حاتم قال : أتيت النبى ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب ، فقال : «ياعدى اطرح عنك هذا الوثن» وسمعته يقرأ فى سورة براءة ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ .
قال : «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلُّوا لهم شيئاً استحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه» . أخرجه الترمذى فى سننه (٣٠٩٥) وقال : هذا حديث غريب .

السلطة الزمنية، وذلك لا يتأتى من الرسول؛ لأن الرسول ﷺ إنما جاء ليلفت الناس إلى عبادة الله بما شرعه الله، وعيسى عليه السلام هو رسول لم يقم إلا بالبلاغ عن الله، ولكن البعض أخطأ التقدير وظن أنه ابن الله، ولذلك يتابع الحق قوله :

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وهكذا يذكر الحق أن الأمر لم يصدر منه سبحانه وتعالى إلا بأن يعبد من يؤمن بالرسالات الإله الواحد. ورسولنا ﷺ يقول :

« خير ما قلته أنا والنبيون: لا إله إلا الله » [1].

وأنت حين تنظر إلى «لا إله إلا الله» تجد النفى فى «لا» والاستثناء من النفى والإثبات فى «إلا»، وهذا نفى الألوهية عن غير الله وإثباتها له وحده، وحين نقول : «الله واحد» فهذا يتضمن الإثبات فقط. ويأخذ الفلاسفة الذين يملكون قوة الأداء والبيان من هذه القضية «الإثبات والنفى»، أو «الموجب والسالب»، ويقولون : كل التقاء بين موجب وسالب إنما يعطى طاقة، والطاقة يمكن استخدامها فى الإنارة أو تدار بها آلة، وكذلك الطاقة الإيمانية تحتاج إلى «سالب وموجب»، ويقول الشاعر إقبال :

إنما التوحيدُ إيجَابٌ وسَلْبٌ

فيهما للنفْسِ عزمٌ ومَضَاء

ويقول سبحانه وتعالى تذييلاً للآية الكريمة : ﴿سُبْحَانه عَمَّا يُشْرِكُون﴾ وحين تسمع كلمة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ فاعرف أنها للتنزيه، فلا ذات مثل ذات الله، ولا صفة مثل صفات الله، فالله غنى وأنت غنى، فهل غناك الحادث مثل غنى الله الأزلى؟ وأنت حى والله حى ، فهل حياتك الموقوتة مثل حياته؟ فحياته

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٣٥٨٥) والبيهقى فى سننه (٤/ ٨٩، ٢٨٩) قال الترمذى : هذا حديث غريب من هذا الوجه.

ذاتية وحياتك موهوبة، فسبحانه حي بذاته، ولذلك يجب أن تفرق بين اسمه «الحي» واسمه «المحيي»، فهو حي في ذاته، ومُحْي لغيره، وإن كانت الصفة لله في الذات فهي لا تتعدى إلى الغير، إن الله يوصف بها ولا يوصف بنقيضها، فتقول «حي» ولا تقول المقابل، ولكن إن قلت: «محيي» فأنت تأتي بالمقابل وتقول «مميت». وتقول: «قابض وباسط» و«رحيم وقهار».

إذن: فصفة الذات يتصف الله بها ولا يتصف بمقابلها، وأما صفة الفعل فيتصف بها ويتصف بمقابلها لأنها في غيره، فسبحانه هو مُحي لغيره، ومميت لغيره، لكنه حي في ذاته. إذن فكلمة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تعني التنزيه ذاتاً، وصفات، وأفعالاً، وإذا جاء فعل من الله، ويأتي مثله فعل من البشر، نقول: إن فعل الله عز وجل غير فعل البشر لأن فعل الله بلا علاج (١)، ولكن فعل البشر بعلاج، بمعنى أن كل جزئية من الزمن تأخذ قدراً من الفعل، كأن تنقل شيئاً من مكان إلى مكان، فأنت تأخذ وقتاً وزمناً على قدر قوتك، أما فعل الله عز وجل فلا يحتاج إلى زمن، وقوته سبحانه وتعالى لانهائية.

ولذلك حين قال سيدنا رسول الله ﷺ: لقد أسْرِىَ بي إلى بيت المقدس، قال من سمعوه: أتدعي أنك أتيتها في ليلة ونحن نَضرب إليها أكباد الإبل شهراً؟ (٢) لكن لم يلتفت أحد منهم إلى أن محمداً ﷺ لم يقل: لقد ذهبت

(١) أي أن فعل الله سبحانه وتعالى يتم في الكون بدون معالجة أو تهيئة أسباب بل الأمر بالنسبة لله: كن فيكون.

(٢) أخرج أحمد في مسنده (١/ ٣٠٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: لما كان ليلة أسري بي وأصبحت بمكة فظعت بأمري، وعرفت أن الناس مكذبي، فقعد معتزلاً حزيناً. قال: فمر عدو الله أبو جهل فجاء حتى جلس إليه فقال له كالمستهزيء: هل كان من شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم، قال: ماهو؟ قال: إنه أسري بي الليلة، قال: إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس. قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: نعم. قال: فلم ير أنه يكذبه مخافة أن يجحده الحديث إذا دعا قومه إليه» الحديث، وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «لما كذبتني قريش حين أسري بي إلى بيت المقدس قمت في الحجر فجلا الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه» أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٣٧٧). والبخاري في صحيحه (٤٧١٠)، ومسلم (١٧٠).

وقد قال ابن إسحاق: فلما أصبح غدا على قريش، فأخبرهم الخبر فقال أكثر الناس: هذا والله الإمْر البين، والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة، أفيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة؟ (سيرة النبي لابن هشام: ٢/ ٤). والإمْرُ: هو الشيء العظيم العجيب المنكر.

إليها بقوتى، بل قال: لقد أسرىَ بى من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.
إذن: فالذى أسْرَى هو الله القوىَ القادر ولا يحتاج الله إلى زمن.

إذن: فـ﴿سُبْحَانَهُ﴾ هى تنزيه لله سبحانه وتعالى عن أى شىء يوجد فى البشر. ولا تقارن قدرة الله سبحانه وتعالى بقدرة البشر مهما كان، بل إن العمل ينسب لقدرة صاحبه، وكلما زادتَ القوة زادت القدرة والله هو القوى.
وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يشركُونَ﴾ هو تنزيه لله، ولا تجد بشراً يقول لبشر حتى من الكفار الذين يعاندون الإيمان، لايقول واحد منهم لآخر «سبحانك» لأن التنزيه أمر يختص به الله عز وجل.

والناس تضع أسماء أولادها، فالأسماء مقدور عليها من البشر، ولكنك لاتجد كافراً معانداً محاربًا لدين الله عز وجل يسمى ابنه «الله» فالمؤمن لا يجرؤ على هذه التسمية لأنه يؤمن بالله، والكافر لا يجرؤ عليها أبدا بقدرة الله وقهره. لذلك فكلمة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ ولفظ الجلالة «الله» لفظان يختص بهما الله وحده بالقدرة المطلقة لله سبحانه وتعالى، وسبحانه القائل:

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)﴾ [مريم]

إذن: فالله سبحانه وتعالى - بالقدرة والقهر - حجز ألسنة البشر جميعاً أن يقول أحدهم لأحد: «سبحانك»، أو أن يسمى أحد ابنه «الله».

والله عز وجل يقول هنا: ﴿لا إله إلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشركُونَ﴾، وموقف المشركين وأهل الكتاب واقع تحت هذه الآية؛ لأن منهج السماء لا يأتى إلا إذا عَمَّ الفساد والله سبحانه وتعالى يريد من الإنسان الخليفة فى الأرض أن يكون صالحاً ومصلحاً، وأقلُّ درجات الصلاح أن تترك الصالح فلا تفسده، فإن استطعت أن ترتقى به فهذا هو الأفضل. فإن كانت هناك بئر يشرب منها الناس، فالصلاح أن تترك هذه البئر ولاتردمها، والأصلح من ذلك أن تحمى

جدرانها بالطوب حتى لاتنهار الأتربة وتسُدَّها، وأن تحاول أن تسهل حصول الناس على الماء من البئر، والأصلح منه أن تصنع خزانا عاليا، ومن هذا الخزان تمتد المواسير ليصل الماء إلى الناس فى منازلهم بدون تعب، هذا إصلاح لأنك بذلك إنما تأخذ بأسباب الحق القائل عن تميز الفكر؛ عند ذى القرنين:

﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥)﴾

[الكهف]

أى : أن الله سبحانه وتعالى أعطى لذى القرنين الأسباب، وهو زَادَ باجتهاده أسباباً أخرى؛ إذن : فالحق سبحانه يريد من الإنسان أن يُصْلِح فى الأرض حتى يسعد المجتمع بأى إصلاح فى الأرض ويستفيد منه الكل، ولذلك يعطى الحق سبحانه وتعالى اختيارات فى أشياء ولا يعطيها فى أشياء أخرى، فالإنسان له اختيار فى أن يصلى أو لا يصلى، يتصدق أو لا يتصدق، يعمل أو لا يعمل إلى آخر ما نعلمه، ولكن الكون الأعلى محكوم بالقهر، فالشمس والقمر والنجوم والهواء والماء وكل هذا له نظام دقيق، فلا الشمس ولا القمر ولاالنجوم، ولا غيرها من الكون الأعلى يخضع لاختيار الإنسان، وإلا لفسد الكون. وكل شيء مقهور سليم بالفطرة ولا يحدث فساد إلا فى الشيء الذى فيه اختيار للإنسان؛ لأن الاختيار قد يتبع الشهوة وهوى النفس، حتى المخلوقات المقهورة كالحيوانات التى سخرها الله للإنسان لايأتى منها الشر. بل إن مُخلَّفاتها تُستخدم فى زيادة خصوبة الأرض. ولكن الأشياء التى صنعها الإنسان ملأت أجواء الدنيا بالسموم ولوثت الجو؛ لأن الأولى مخلوقة بهندسة إلهية، والثانية بهندسة بشرية علم صانعها أشياء وغابت عنه أشياء.

وقد يعتقد الناس أن هناك بعضاً من الاكتشافات قد حلَّتْ مشكلات الكون، ثم بعد ذلك وعندما تمر السنوات يعرفون أنها جاءت بالشقاء للبشرية، ولعل تلوث البيئة الذى بدأ يؤثر على حياة الكون أخيراً يلفتنا إلى ذلك ، حتى

إن الإنسان الذى قطع الأشجار وأزال الغابات التى خلقها الله فى هذا الكون لتكون مصدراً للهواء النقى وأنشأ بدلاً منها مصانع ومُدناً؛ بدأ الآن يحاول أن يعيد زراعة هذه الأشجار بعد أن علم أن تدخله فى الكون قد أفسد جَوّه وماءه وأفسد على جميع الكائنات حياتهم، ولو أن الإنسان المختار عاش فى الدنيا وفقاً لمنهج الله تعالى لاستقام أمر الدنيا ، كما استقام الكون الأعلى. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) ﴾ [الرحمن]

إذن : فالميزان للعلويات لا يختل أبداً، فإذا عرفتم ذلك فنَفّذوا أمر الحق سبحانه وتعالى فى قوله:

﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ [الرحمن: ٨]

فإذا سرتم على ضوء منهج الله تعالى، تستقيم أموركم الدنيا كما استقامت أموركم العليا، وها هو ذا الكون أمامكم يسير منضبطاً، وهذا شأن الشىء الذى فيه اختيار للإنسان؛ إنْ لم يسرْ على منهج الله عز وجل تجدوه غير مستقيم. وعلى هذا إذا رأيت عورة فى الكون من أى لون، فاعلم أن منهجاً من مناهج الله قد عُطّل.

ولذلك نجد ـ أيضاً ـ أن المفسدين ساعة يرون أن مصلحاً قد جاء ليضرب على أيدى المفسدين، تجدهم يحاولون إفساده وجذبه إليهم ليعيش فسادهم، وإذا لم يتحقق لهم ذلك فهم يقفون أمام هذا المصلح لأنهم إنما يعيشون بالفساد وعلى الفساد، ويصنعون لأنفسهم السيادة والجبروت ويستعبدون غيرهم، وحين يرى المفسدون رجلاً يريد أن يعدل ميزان الكون فهم يحاربونه.

وأنت حين تشترى سلعة، فالبائع يزنُ لك بمقدار ما تدفع من ثمن، ويحتاج

البائع إلى ميزان منضبط ليزنَ لك به ما تشتريه، فإن كان بائعاً مخادعاً، فهو يعبث بالميزان ليبيع لك الأقل بالثمن الأكبر، وليبخسك حقك. ومثل هذا البائع مثل المفسدين الذين يرهقهم أن يأتي مصلح يعيد ميزان الكون لما أمر الله عز وجل من إقامة العدل وإصلاح المعوج.

ومن قبل قلنا: إنَّ الحق ضرب المثل فجعل له سبحانه نورين.. النور الأول حسي وهو في الماديات، والنور الثاني معنوي وهو في القيم، وكما أن النور الحسي يهدي الإنسان إلى طريقه دون أن يصطدم بأي شيء؛ لأن الإنسان إن اصطدم بشيء أقل منه، فإنه يحطمه، وإذا كان الشيء أكبر من الإنسان فهو يحطم الإنسان، وهكذا يلعب النور دوراً في الحسيات، وكذلك جعل الله للمعنويات نوراً، لذلك قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥]

والمفسد يكره أن يوجد مثل هذا النور، بل يريد أن يطفئه، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾

لكن هل يستطيعون أن يطفئوا نور الله؟ لا؛ لأن الإنسان في الأمر الحسّي لايستطيع أن يطفئ النور؛ لأن هناك فَرقاً بين مصدر النور وبين أداة التنوير، فالإنسان يمكنه أن يحطم الدائرة الزجاجية التي تحمل النور، لكن لا أحد بإمكانه أن يطفئ «المُنوِّر» والمنوِّرُ الأعلى هو الله، ولا أحد يستطيع إطفاءه. ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يطفئُوا نُورَ الله بأفواههِمْ ويَأْبَى اللهُ﴾ أي: لا يريد الله شيئاً ﴿إلاَّ أن يُتِمَّ نُورَهُ﴾، وسبحانه قدَ أرسل الرُّسُل حاملة لمنهج النور ولم يرسل الرسل